

السؤال

أعاني من نفسي ميلاً إلى الكبر على الناس والتعالي عليهم وأحب أن أكون متواضعاً فأرجو أن تذكروا لي شيئاً من فضل التواضع وأنواعه لعل الله أن يشرح صدري له .

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

التواضع أعظم نعمة أنعم الله بها على العبد ، قال تعالى : **فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك** آل عمران / 159 ، وقال تعالى : **وإنك لعلی خلقٍ عظیم القلم** / 4 ، وهو قيامه صلى الله عليه وسلم بعبودية الله المتنوعة ، وبالإحسان الكامل للخلق ، فكان خلقه صلى الله عليه وسلم التواضع التام الذي روحه الإخلاص لله والحنو على عباد الله ، ضد أوصاف المتكبرين من كل وجه .

" المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ السعدي " (5 / 442 ، 443) .

وللتواضع أسباب لا يكون المسلم متخلقاً به إلا بتحصيلها ، وقد بيَّنها الإمام ابن القيم بقوله :

التواضع يتولد من العلم بالله سبحانه ، ومعرفة أسمائه وصفاته ، ونعوت جلاله ، وتعظيمه ، ومحبته وإجلاله ، ومن معرفته بنفسه وتفاصيلها ، وعيوب عملها وآفاتاها ، فيتولد من بين ذلك كله خلق هو " التواضع " ، وهو انكسار القلب لله ، وخفض جناح الذل والرحمة بعباده ، فلا يرى له على أحد فضلاً ، ولا يرى له عند أحد حقاً ، بل يرى الفضل للناس عليه ، والحقوق لهم قبله ، وهذا خلق إنما يعطيه الله عز وجل من يحبُّه ، ويكرمه ، ويقربه .

" الروح " (ص 233) .

وقد جاء في ثواب التواضع الفضل الكبير ، ومنه :

عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما نقصت صدقةً من مال ، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً ، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله " .

رواه مسلم (2588) وبوّب عليه النووي بقوله " استحباب العفو والتواضع .

قال النووي :

قوله صلى الله عليه وسلم : " وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله " : فيه وجهان : أحدهما : يرفعه في الدنيا ، ويثبت له بتواضعه في القلوب منزلة ، ويرفعه الله عند الناس ، ويجل مكانه .

والثاني : أن المراد ثوابه في الآخرة ، ورفعها فيها بتواضعه في الدنيا .

قال العلماء : وقد يكون المراد الوجهين معا في جميعها في الدنيا والآخرة ، والله أعلم .

" شرح مسلم " (16 / 142) .

والتواضع يكون في أشياء ، منها :

1. تواضع العبد عند أمر الله امتثالاً وعند نهيه اجتناباً .

قال ابن القيم :

فإن النفس لطلب الراحة تتلصق في أمره ، فيبدو منها نوع إباء هرباً من العبودية ، وتتوقف عند نهيه طلباً للظفر بما منع منه ، فإذا وضع العبد نفسه لأمر الله ونهيه : فقد تواضع للعبودية .

" الروح " (ص 233) بتصرف .

2. تواضعه لعظمة الرب وجلاله وخضوعه لعزته وكبريائه .

قال ابن القيم :

فكلما شمخت نفسه : ذكّر عظمة الرب تعالى ، وتفرد به بذلك ، وغضبه الشديد على من نازعه ذلك ، فتواضعت إليه نفسه ، وانكسر لعظمة الله قلبه ، واطمأن لهيبته ، وأخبت لسلطانه ، فهذا غاية التواضع ، وهو يستلزم الأول من غير عكس . (أي يستلزم التواضع لأمر الله ونهيه ، وقد يتواضع لأمر الله ونهيه من لم يتواضع لعظمته)

والتواضع حقيقة : من رزق الأمرين ، والله المستعان .

" الروح " (ص 233) .

3. التواضع في اللباس والمشية .

عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " بينما رجل يجرُّ إزاره من الخيلاء خُسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة " .

رواه البخاري (3297) .

ورواه البخاري (5452) ومسلم (2088) من حديث أبي هريرة ، ولفظ البخاري : " بينما رجل يمشي في حلَّة تعجبه نفسه مرجل جمته إذ خُسف الله به فهو يتجلجل إلى يوم القيامة " .

يتجلجل : ينزل في الأرض مضطرباً متدافعاً .

مرجل جمته : الترجيل هو تسريح الشعر ودهنه .

والجمة : هي الشعر المتدلي من الرأس إلى المنكبين .

4. التواضع مع المفضل فيعمل معه ويعينه .

عن البراء بن عازب قال كان النبي صلى الله عليه وسلم ينقل معنا التراب يوم الأحزاب ولقد رأيته وارى التراب بياض بطنه يقول : لولا أنت ما اهتدينا نحن ولا تصدقنا ولا صلينا فأنزلن سكينه علينا إن الألى وربما قال الملا قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا أبينا يرفع بها صوته .

رواه البخاري (6809) ومسلم (1803) .

5. التواضع في التعامل مع الزوجة وإعانتها .

عن الأسود قال : سألت عائشة ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصنع في بيته ؟ قالت : كان يكون في مهنة أهله - تعني : خدمة أهله - ، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة .

رواه البخاري (644) .

قال الحافظ ابن حجر :

وفيه : الترغيب في التواضع وترك التكبر ، وخدمة الرجل أهله .

" فتح الباري " (2 / 163) .

6. التواضع مع الصغار وممازحتهم

عن أنس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسنَ الناس خُلُقاً ، وكان لي أخ يقال له " أبو عمير " - قال : أحسبه فطيماً - وكان إذا جاء قال : يا أبا عمير ما فعل النغير .

رواه البخاري (5850) ومسلم (2150) .

قال النووي :

" النُّغَيْر " وهو طائر صغير .

و" الفطيم " بمعنى المفطوم .

وفي هذا الحديث فوائد كثيرة جداً منها : ... ملاطفة الصبيان وتأنيسهم , وبيان ما كان النبي صلى الله عليه وسلم عليه من حسن الخلق وكرم الشمائل والتواضع .

" شرح مسلم " (14 / 129) .

7. التواضع مع الخدم والعبيد .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فإن لم يجلسه معه فليناوله لقمة أو لقمتين أو أكلة أو أكلتين فإنه ولي حره وعلاجّه .

رواه البخاري (2418) و (5144) ومسلم (1663) .

ومعنى " ولي حره وعلاجّه " : أي عانى مشقة صنع الطعام والقيام على تقديمه ، وفي رواية مسلم " ولي حره ودخانه " .

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من المتواضعين لعظمته .

والله أعلم .